الفصل الخامس

الوجود . . . والعدم

إن ما يحتاجه الإنسان هو أن يجد نفسه مرة أخرى ، وأن يفهم أن لا شيء سينقذه من نفسه ، والوجودية بهذا المعنى تأمل وتتفاءل ، فهي مذهب فعل ، ولا تهدف إلى خنق الإنسان باليأس ، ولو كان اليأس يعني عدم الإيمان ، فاليأس عند الوجوديين شيء مختلف .

جان بول سارتر

* * *

صدق من وصف عصرنا بأنه عصر القلق ، فأمام وسائل الدمار التي أنشأها العلم الحديث ، واسترجاعا لآلام وفناء وويلات الحربين العالميتين اللتين نكبت بهما الإنسانية ، أحس الإنسان بنسيج الحياة التي يحياها ، وواجه القلق وقتامة المصير ، ووقف صراحة أمام بشاعة وجوده ولا معقوليته .

ولكن القلق يولد التفكير في المستقبل والإحساس المسئولية ، وهو يورد الإنسان أمام أفعاله ، يختار أنسبها

وأصلحها لنفسه وللآخرين ، والاختيار فيه الامتلاء بالحرية ، وهذه المعانى هى ماتبحث فيه وتناقشه الوجودية .

وعلى ذلك فهى مذهب إنسانى قديم قدم الإنسان ، فهذه القضايا يطرحها التوراة والانجيل مشاكل تقض الإنسان ، ويحياها الأنبياء كبشر عانوها وعاشوا أفكارها .

وهى نفسها المشاكل التى قضى « سقراط » عمره يحاورها ويحاوره ، والتى عاشها الرواقيون .

ولكن الوجودية ، كمذهب فلسفى ، لم تولد إلا بميلاد « كيركجورد » سنة ١٨١٣ . وكان « هيجل » وقتها قد أقام فلسفته الكبرى فى « المطلق » المنفصل عن الزمان . وقال بأن الحياة تتألف من تناقض ، ولكن بعد كل تناقض يأتى الاتزان والسلام والطمأنينة ، ويتلاشى الأسى والعدم والموت .

ونشأ « كيركجورد » فى الأسى ، وعاش اليأس واللعنة ، فثار على مذهب « هيجل » لأنه لا يمكن أن يكون ثمة مذهب فى الوجود ، وقضايا الإنسان لا يمكن أن تكون معانى مطلقة ، بل هى مشاكل عينية ، وفارق بين الموت كموضوع ، وبين « أنى أموت » ، والأولى قضية عامة ، والثانية مشكلة فردية ،

وإذن فالفرد يقف مواجهاً للمعنى العام ، والفرد ذات ، والذات يقابلها العالم الخارجي والغير .

وهكذا يضع « كيركجورد » اللبنات الأولى للوجودية ، ونجد « هيدجر » و « يسبرز » . وقال « هيدجر » بالوجود « العيني » ، والوجود في أصله هو وجود الذات المفردة ، وليس الوجود المطلق . والذات المفردة تعيش في زمان ومكان معينين ، فهو وجود « في » بمعنى أنها موجودة في هذا الزمان والمكان المعينين .

والذات المفردة تعيش مع غيرها من ذوات ، وهي مضطرة إلى معايشتها ، وهذا هو الوجود « مع » الناس أو الوجود « مع » ..

والوجود « مع » يستلزم أن تخضع الذات إلى قيم الناس ، أن « تسقط » في هوة وجودهم ، وسقوطها ضرورة لأنها لا يمكن أن تلغي الناس ، ووجودها « مع » وجود زائف ، وهي تلجأ إلى هذا الوجود لأنها تخاف أحوالها الوجودية ، تخاف الموت ، وفي الموت تفرد ، فالذات لا تموت « مع » الناس ، إنها لا تموت « مع » ، ولكنها تموت وحدها ، فوجودها وجود للعدم ، وكل ذات ذائقة الموت ،

فهى إلى الموت إن آجلا أو عاجلا ، فالموت عنصر جوهرى فى الوجود .

ويتطلع « يسبرز » إلى الوجود ، فيراه وجود مشاكل ، والموت والألم مقدران على الوجود ، ولا فكاك له منهما . والخطيئة لا فكاك له منها كذلك ، فالوجود إذن وجودان ، وجود الذات ، ووجود الذات مع الوجود التجريبى ، أى وجود العالم ، والذات تدخل فى صراع مع الآخرين ، ومع الوجود التجريبي ، ولا سبيل إلى استقرارها فى الوجود التجريبى إلا بالحب .

ولقد جاء سارتر فقال إن الوجود هو وجود الذات ، هذا صحيح ، ولكن الوجود يسبق الماهية ، فأنا أوجد أولا ثم تتحدد صفاتى بعد ذلك ، والصفات هى الماهية ، فالوجود أسبق على الماهية ، وليست الماهية أسبق على الوجود . والماهية الأسبق على الوجود تفترض ان العالم قبل ان يوجد وجدت صورته ولذلك فهى تفترض وجود المطلق ، ولكن الوجود السابق على الماهية ينقض وجود المطلق ، فليس ثمة مطلق .

وما دام الإنسان يوجد أولا ثم تتحدد ماهيته من بعد ،

فليس ثمة طبيعة إنسانية ، وهو حر فى اختيار ماهيته ، فهو كما يريد . ولكننى لا أستطيع أن أختار أن أكون زهرة أو حصانا ، فأنا أختار داخل حدود النوع الإنسانى ، داخل كونى إنسانا ، وأختار داخل حدود الزمان والمكان اللذين ولدت فيهما ، فلا أستطيع أن أختار أن أكون فى عصر غير العصر الذي ولدت فيه ، ولا أستطيع أن أتخلص من الصفات النوعية للمجتمع الذى نشأت على أرضه ، فأنا مصرى ولست فرنسياً أو انجليزياً ، والاختيار هو اختيار لموقفى ، أن أكون جباناً أو شجاعاً ، أن أكون عاملا أو ثورياً . وقد أرضى بوضعى كعامل ، وقد أثور على وضعى وأسعى لتغييره ، وتغيير وضع العمال من زمـــلائى ، وهكذا أحرر نفسى وأحرر العمال من أمثالى ، وهكذا أفتح طريقا للحرية ، طريقا يرسم حاضرى ويؤثر فى مستقبلى ، ويقيم ماضيا له قيمه الخاصة .

وحريتى هذه تحسنى بمسئوليتى ، ولأنها حرية كاملة فالمسئولية فيها كاملة ، وتشمل الحرية أفعالى ، كما تشمل عواطفى وأحاسيسى ، فكل موقف أقفه تتشكل فيه عواطفى بالطريقة التى أختارها ، لأن العاطفة هى التى ستمنحنى الطاقة على إتيان الفعل ، فالعاطفة والفعل حران .

وحريتى شيء لنفسى ، ومسئوليتي كذلك ، ولكنى عندما أختار أنبذ قيما وحلولا . وأؤثر عليها قيما أخرى وحلولا مختلفة ، واختيارى لها فيه إعلاء لهذه القيم ، وإعلائى لها تقييم يدعو الغير إلى اختيارى ، فأنا عند ما أختار أشرع وأقنن للغير ، والقرار الذى اتخذه دعوة للغير كى يتخذوا مثله ، وأنا أختار الصالح والخير لنفسى ، وما هو خير وصالح لى قد يكون خيراً وصالحاً للغير ، وصورة الخير فى ذاتى دعوة للناس أن يتخذوها صورة للخير فى ذواتهم هم أيضاً ، وإذن فمسئوليتى ليست تجاه ذاتى وحدها ، إننى مسئول كذلك عن الآخرين ، لأن مسئوليتى تلزم الآخرين . فيالها من مسئولية ! إنها تقلق صاحبها ، تقلق الإنسان ، وصاحبها لذلك مهموم ، والقلق والهم لزوم المسئولية ، والمسئوليـــة بنت الحرية ، فالقلق ضريبة الحرية ، وبالقلق سيعيش الإنسان .

والقلق يولد فعلين تجاه الموقف الواحد : فعل تقلد فيه الناس فى موقف كهذا الموقف ، تكبت فيه ميولك وتقضى على دوافعك ، وتحس لو خرجت عن التقليـــد واستسلمت لميولك بالندم وتأنيب الضمير .

وفعل لا تستسلم فيه لميولك كما ذكرت ، ولكنك تختار

تحقيق هذه الميول اختياراً ، وتسعى لهذا التحقيق سعياً ، فهو ليس الإستسلام السلبى ولكنه الإتيان الإيجابى .

وصاحب الفعل الأول الذى يخضع ويتآلف مع قيم وتقاليد مجتمعة « نذل » أما صاحب الفعل الثانى الذى لا يخضع ويخالف ، وينشىء لنفسه قيمه ، ويرسم أفعاله ، فهو «الغشاش» إن الغير يتهمه بخرق التقاليد وكسر القوانين . و « الغشاش» . يعيش حياته ، يعيش حاجاته واختياره ، يعيش وجوده ، ووجوده لذلك يمتلىء خصب ريان ، وهو يقف حيال امتلائه يحس « الغثيان » . « فالغشاشون » « غثيانيون » . إن وجودهم غير محدد . الوجود عندهم لا حدود له . « ولا حديته » تغثيهم . وهم قد يهربون من غثيانهم بالعلم لأن العلم يثبت الوجود ويحدده ، وهم يريدون تثبيت الوجود لكى لا يثير بدورانه اللامحدود رءوسهم ، أو قد يهربون بالسحر ، فالسحر حيلة من يعجز على تثبيت غير المستقر . إنه يفترض موجودات خلف الموجودات . يفترض المطلق . وهو يلجأ للمطلق يعينه على غير المحدود بحدود ، وينقذه من غثيانه . وقد يهرب بالجنون ، بأن نلغى العقل الذى يرفض إلا الحدود والمعايير ، ونحيا فى عالم لا حدود فيه ولا فواصل ولا معايير ولا قيم . إنه والعالم الذى أصابنا بالغثيان واحد ،

ولكن «الغشاشة» يرفضون العلم ، ويسخرون من السحر ويتأبون على الجنون . إنهم يواجهون كل ذلك ، ويثيرون الناس ، ويقضّون أمنهم .

وهم يفعلون ذلك بنبذ القيم والتقاليد والعرف والماضى التليد . فلا قيمة إلا لما تصدره ذاتى ، ولا فكر إلا ما تفكر فيه أنای . ولذلك أحس بالقلق ، بل إن القلق هو جوهر وجودى ، وأنا حياله غثيان ، والغثيان هو ما لا يمكن أن يعانيه الأنذال الخاضعون . ولكن الأشياء فى الغثيان غير ثابتة ، تكبر أو تصغر ، تتغلطح أو تتكور . وهذا هو/منطق الوجود ، أنه لا ثبات فيه ، والثبات هو ما نفتعله له ، أو ما يفترضه الأنذال . أما الوجود فهو بلا شكل وبلا حدود . بلا رائحة وبلا طعم ، والزمان بلا ماض وبلا مستقبل ، والحاضر زلق يفر من بين أيدينا ، ولا تمسكه عقولنا .

ولكن هل كل ما هو موجود يحس نفس الإحساس ؟

إننى موجود ، وكذلك هذه المنضدة التى أكتب عليها . وأنا موجود لذاتى ، فوجودى إذن « وجود لذاته » ، ولكن المنضدة موجودة فى ذاتها ، ووجودها « وجود فى ذاته » .

ووجودى أحس به ، وأنا أختاره وأسويه ، فهو وجود لى ، ووجود لذاته ، ولكن المنضدة لا تختار وجودها ، إننى

أختاره لها ! فوجودها ليس لذاته ولكنه « فى » ذاته » .

ووجود المنضدة فى ذاته لا يخلق قيمة ، إنها لا تخلق قيمة . بل أنا الذى أخلق لهـــا القيمة ، وأنا خالق القيم ، فالوجود لذاته وجود يخلق ويضفى ويهب ويمنح .

وعندما أعى وجودى ، وأعى ذاتى ، وأعى الوجود من حولى أحس بالنقصان ، فقبل وعيى لم يكن هناك نقصان ، وعندما وعيت وجد النقصان ووجد العدم . فوجودى نقصان فى الوجود ، ولكن الأشياء لا تعى النقصان ، إن وجودها وجود كامل ، وأنا أريد أن يكون وجودى كاملا كوجود الأشياء ، أن يكون وجودا فى ذاته ، وهذا هو المستحيل ، لأنى أن أوجد فى ذاتى ، وأن أعى هذا الوجود ، شيئان لا يتصف بهما إلا الإله ، ومستحيل أن يكون الإنسان إلها — أن يحس بالأشياء وأن يكون هو نفسه شيئا — ولكنه فى حنين دائم إلى أن يكون هذا الوجود المتناقض ، وهو لا يحصل من هذا الحنين شيئا ، لأن ذاته دائمة الفرار منه ، وهو ان يلحق بها ، فالذات بعيدة عن صاحبها ، وبعدهما هو لازمة الوجود ، بل هو نقيصة الوجود ، إنه مرض . والانسان يحاول أن يلحق بالذات الهاربة ، يحاول القضاء على مرضه ، على نقصه ، وفى محاولتـــه يختار بين الحلول ، يؤثر بعضها ، وينبذ

ماعداها ، والنبـــذ إعدام ، إنك تلغى ما لا تختـار ، تعدمه ، والعـــدم لازمة أخرى من لزوميات الوجود . ولـكن حتى ما تختار مآله للعدم ، وإذن فالاختيار والنبذ مآلهما عدم ، وإذن فالحرية هى اختيار العدم ، والوجود وجود عدم .

ولـكن رغم أن ماتختار مآله العدم ، فحرية اختيارك تجعلك مسئولا عما تختار من قبل ، والمسئولية تدفع إلى العمـــل . فالعمل هو الإنسان ، والإنسان هو أفعاله .

وعلى ذلك فالوجودية رغم عدمية الوجود فيها ، ليست فلسفة تشاؤمية . بل هى للتفاؤل ، ولـكن شتان بين تفاؤل الذى يعرف وتفاؤل الذى لا يعرف ، شتان بين تفاؤل الذى يفهم الحياة ، وتفاؤل الذى لا يفهم الحياة ، والوجودية فهم لحقيقة الوجود ودعوة للفعل مع ذلك .

وأنا عندما أفعل رغم على لحقيقة الوجود ، إنما أتحمل مسئولية وجودى ، وأضفى معانى وقيما لوجودى ووجود الآخرين .

ولـكن ماذا يدعونى لاتخاذ هـــذا الوقف ؟ رغبتى فى استكمال النقص الذى يتسم به الوجود ، فالوجود الخارجى وجود « فى » ذاته ، وجود لا يعى وجوده ، وأنا أريده

وجودا لذاته ، وجوداً يعى وجوده ، ولكن هيهات . إن رغبتى هى غرور الغرور . محال أن تتحقق ، وسيظل النقصان صفة الوجود . وسيبقى العدم لاصقاً بالوجود . وإذن فمحاولتى عبث .

ن وجودى عبث ، ووجودى مع الآخرين عبث . وأنا موجود اذاتى ، وموجود أيضا للآخرين . وقد أفعل شيئا فلا أحس تلقاءه بشىء ، ولكن عندما يراني الآخرون ينتابنى الخجل ، وخجلى مصدره نظرة الآخرين ، ونظرة الآخرين تجعلنى مجرد شىء بالنسبة لهم ، تحيلنى موضوعا لنظرهم . ومن أجل ذلك فأنا فى صراع مع الاخرين ، فى صراع معهم لكى لا أستحيل إلى موضوع ، إلى شىء ، واستحالتى إلى شىء تجعلنى فى مدار وجود الآخرين ، تسلبنى وجودى

ولكن مثلما يحدث للغير يحدث لى ، فكما ينظر الغير إلىّ ليجعلنى موضوعا ، أنظر أنا للغير لأجعله موضوعا لى . فالغير موضوع وذات ، وأنا موضوع وذات . وعلاقتى بالغير علاقة وجود ، وبين وجودى كما أعيه ، ووجودى كما يعيه الغير ، فاصل ، عدم ، وهذا الفاصل هو حرية الغير ، فكأن هناك عدمين ، العدم الذى يفصل بينى وبين ذاتى ، والعدم الذى

يفصل بين وجودى وذاتى ، أو كأن هناك حريتين ، حرية الغير وحرية نفسى ، والغير يريد أن يمارس حريته ، أن يعلو علىّ ، وعلوه يسلبنى إمكانياتى التى كانت لى ، إنه يضربها بتعاليه ، يجردنى من الأهمية التى كانت حولى بظهوره ، فهو موت لإمكانياتى ، وهو سيد موقفى أنا بعد أن كنت أنا سيدٌ موقفى .

ولكن وجود الغير مع ذلك لازم لوجودى ، لأن وجود الغير يحسنى بوجودى ، ولا بد لكى أحس بوجود الغير أن أحس بوجودى ، وهذا هو مايجعل وجود الغير ممكنا ، والغير يرى ذاتى كموضوع ، وأنا أرفض ذاتى موضوع الغير ، ورفضى لها رفض لوجود الغير ، ومع ذلك فذاتى موضوع الغير هى صلتى بالغير ، وهى كذلك حريتى لأن عدم انصهارها فى وجود الغير دليل على استقلالى ووجودى ، فهى إذن ضرورية لوجودى فهى وجودى الخارجى ، أو هى وجودى الغير ، وإذن فأنا أريدها وأرفضها فى نفس الوقت ، كما أريد الغير وأرفضه فى نفس الوقت ، فالغير هو الجنة والجحيم معاً .

ولكن الغير قد يكون عاشقاً أو معشوقاً . والصراع بين ذاتى وذاته صراع ينتهى حتما بأن ابتلعه أو يبتلعنى ، فإما أن أفنى فى الحبيبة أو تفنى الحبيبة فىّ ، وإذا فنى أينا انتهى الحب ،

لأنه لن يكون ثمة عاشق ومعشوق . بل سيكون هناك عاشق فقط أو معشوق فقط .

هذا هو ما عرضه سارتر فى كتابه « الوجود والعدم » ، واستخدم فيه مذهب « هسرل » فى التحليل ، وهو مذهب « الظاهريات » . وفيه يرى « هسرل » أن الموجودات ليس لها ظاهر وباطن ، بل هى ما تظهر عليه ، والمظهر هو واقع الموجود ، وهو مظهر نسبى بالنسبة للشخص الذى يراه ، وهو مطلق لأنه لا حقيقة وراءه سوى ما يظهر عليه .

ولكننا بهذا المذهب نجد الوجود وجودين ، وجود الأشياء أو الوجود فى ذاته ، وهو وجود الشىء كوجود المنضدة مثلا . إن وجودها هو مجموع ظاهرها ، إنه وجود لا يحيل إلى جوهر آخر ، فهو وجود فى ذاته ، وهو لهذا ممتلىء ريان ، إنه هو نفسه ، ليس له داخل وخارج ، بل هو كتلة فيها الداخل والخارج معاً ، فالعدم لا ينفذ إليه .

والوجود الثانى هو وجود الإنسان ، هو الوجود لذاته ، فالإنسان له داخل وخارج ، الإنسان هو نفسه وله ذات ، ووجوده لهذه الذات ، وهو قد يتحول إليها ويأخذ منها ، أو يضيف إليها ويثريها ، فهو سلب وإضافة لهذه الذات .

والوجود لذاته هو الوعى ، وهو وجود يمكن ألا يكون ، فهو كالحادثة سواء ، يوجد بلا سبب ، ويعيش الحياة عن ضعف حيال الحياة ، ويموت بالصدفة . .

ـــ وما دمنا نوجد للا سبب . .

ـــ ونعيش عن ضعف . .

ـــ ونموت بالصدفة . .

ـــ فأى حماس لنا للحياة ؟ ـــ إن الميلاد عبث ، والعيش عبث ، والموت عبث .

ـــ عبث هو الوجود ، والحماس له عبث ، فالوجود حماس بلا طائل ! . . ولكن هل يظل الإنسان بلا حول ولا طول ، يجتر تحسره ، ويعيش تشاؤمه ؟ .

ـــ نعم ؟ إنه قد يفعل ، ويقعد ملوما محسوراً . . .

ـــ وهو قد ينفر ويتمرد ، ويكون تمرده لنفسه ، منغلقاً عليها ، ساخطا . . . وكفى . .

ـــ وهو قد يثور ويحمل صليبه ، وصليب الناس معه ، بل وصليب العصر كله ، والوطن الذى يعيش فيه ، والعالم الذى يكون فيه الوطن جزءاً صغيراً ...

ويختار سارتر الطريق الثالث ، طريق الثـورة الاجتماعيـة ، وطريق المعـذبين والمضطهدين . . طريق العمال والاشتراكية .

وهذا المـذهب — مذهب الظاهريات — الذى أبدعه هوسرل ، يمتد إلى الانفعال .

وهسرل يعلق الحكم على الأشياء . إنه يصفها أولا قبـل أن يحكم عليها . وهو يصفها كما تظهر للشعور . ولـكن وصف الشيء يكون بتحديد ماهيته بالنسبة للشعور المتعالى ، والشعور المتعالى هو شعورى أنا ، أى أن التصورات لا قيمة موضوعية لها إلا بوصفها تصوراتى أنا ، فالأنا شرط أساسى لإمكان التجربة .

وكل شـعور هو شعور بشيء ، وعلى ذلك يرى سارتر أن الانفعال نوع من الوجود الإنسانى ، فهو ليس حالة شعورية داخلية ، وليس شيئا عارضاً كما يدعى « الفرويديون » وغيرهم ، ولـكنه حالة شعورية مرتبطة بموضوع خارجى ، و «علم النفس الوجودى » كما يشرحه سارتر فى كتابه « نحو نظرية فى الانفعال Esquisse d'une théorie des émotions » ، يتنـاول الإنسان فى علاقته بالعالم الخارجى ، كما هو فى عدد من المواقف ، فى المقهى والأسرة والحرب ، فهو يتنـاول « الإنسان فى مواقفه » .

ولنتناول الإنسان مثلا فى الحرب . إنه يعادى شيئا . وانفعاله هذا تجاه الشىء يقتضى منه ضرباً من السلوك ، يستهدف تغيير حالة الموضوع محل عدائه . إنه يقتل ويدمر ، لأن مايقتله ويدمره مشكلة بالنسبة له . وهذه المشكلة هى مشكلة قد استعصى عليه حلها ، وهو لم يجد لها حلا إلا بالتنحية والتدمير والإزالة ، وهذا كله ضرب من السلوك المتخيل . إنه لا يريد حل المشكلة . ولكنه يمارس تجاهها سلوكا كالسحر يفترض حلها ، وهذا هو « الخيال » ، إنه إنكار للواقع وتخيل عدم وجود المشكلة . فالخيال ليس إدراكا للواقع ، ولكنه شىء مختلف . ومع أن الخيال ليس إدراكا للواقع فمع ذلك هو شعور بشىء ، إنه ليس شيئاً داخل الشعور ، ولكنه شعور بشىء غائب ، وأنا أتوهم أنه حاضر وموجود . وهذان هما الخيال والانفعال .

والخيال يتناوله سارتر فى كتابيه « L'Imagination » و « L'Imaginaire » . وبين الاثنين أصدر كتابه نحو « نظرية فى الانفعال » ، وكان ذلك بالتحديد سنة ١٩٣٩

وسارتر إذ يصل إلى هذه النتائج التى وصل إليها

فى تعريف الخيال والانفعال ، ويصل إلى أن علم النفس هو العلم الذى يتناول الإنسان فى عدد من المواقف .. يصل كذلك إلى أن الأدب هو عرض علاقة الأفراد بعضهم ببعض ، لا من خلال تأثيرهم فى بعضهم البعض ، ولكن من خلال مواقفهم ، فأدب المواقف لا يعرض شخصيات وأبطالا ، ولكنه يعرض حريات مقيدة ، حريات منصوب أمامها الشراك ، والجدران من حولها قائمة ، وهى نفسها التي تختار لنفسها الطريق ، فكل شخص هو الذى يخلق لنفسه الطريق ... « والإنسان يجب أن يخلق كل يوم » ...

* * *